حب الزوج في شعر بنت الشاطئ

بلال احمد زرغر*

ABSTRACT:

Love of Husband in the Poetry of *Bint al-Sh┐ ═ i'*

' └ *'ishah Abd al-Ra* ╒ *m┐ n* (1913-1999), known as *Bint al-Sh┐ ═ i'* - her pen-name, is a prolific writer, who has more than forty books and one hundred articles to her credit. Though *Bint al- Sh┐ ═ i'* is mostly known for her prosaic work especially in the field of Islamic studies yet she was a good poet too.

This paper aims to study the personal part of her life: her falling in love with her teacher, *Am┘ n Al-Khaul┘* (1895-1966) in Cairo University, a man who is already married and older to her almost 18 years. She proved all the criticism and vituperation wrong by remaining loyal to him for almost 62 years, out of which 36 years are after his death. This article stands a proof on her true love.

من الخطأ الظن أن الزواج سبب فساد الحب بين المتحابين كماجعل يتوهمه كثير من الشباب المثقف بالثقافة الجديدة الوافدة من الغرب؛ كما تدل عليه هذه المقولة الشايعة بينهم (اذا دخل الزواج من الباب هرب الحب من الشباك) وذلك بوجهين: الأول أنه خلاف تماما لماثبت بكتاب العربية الأكبر، المؤلف بين القلوب على أساس ثابت قوي متين خالد:من أن الزواج انما هو في الحقيقة باعث الحب والمودة والسكون والرحمة بين الزوجين؛ والثاني أنه كذلك خلاف للواقع. هنا أريد أن أقدم دليلا على ذلك كنموذج ومثال من تاريخ الأدب العربي المعاصر؛ وهذا النموذج سيريكم – خلافا للمألوف المعتاد – امرأة تحب وتعشق الرجل الزوج؛ وقصة حبها لزوجها تعد من أقوى قصص الحب في تاريخ الأدب العربي المعاصر؛ فكانت هذه القصة من القوة بحيث أصبحت منبعا ومصدرا لكثيرمن كتاباتها الفنية وحتى البحثية والعلمية منها؛ لا يتسع هذا المقال لذكرها؛ ولكن لابد من ذكر (الاهداء) الذي كتبته على أحد مثل هذه الكتب تحية لحبيبها الراحل الى رحمة الله؛ لدلالته على ما كانت تكن في صدرها من حب وغرام نحوه مع وجازته:

"الى امين الخولي الانسان........

صحبته في رحلة الحياة فتجلت لي فيه وبه آية الانسان بكل عظمته وشموخه
وكبريائه وجبروت عقله ومرهف حسه وعزة ضميره

---

* باحث الدكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة كشمير، الهند

ثم مضى...

فعرفت منه وفيه مأساة الانسان بكل هوانه وضعف حيلته وقصور طاقته

وفيما بين حياته وموته أرهف احساسه بقصة الانسان من المبتدأ إلى المنتهى". [1]

ثم لم يتوقف الامر على هذا فحسب بل انها نظرت الى الفن والحياة كما نظر زوجها العشيق؛ حتى انها من أجل ذلك خاضت المعارك مع كبار الأدباء بطبيعتها الأنثوية العاطفية؛ فمعركتها مع الزيات جديرة بالدراسة من هذه الناحية لأنها أثارت الزيات؛ فرد على هذه المرأة العاشقة ردا عنيفا جميلا كان من الحسن والجمال والسحر والتاثير بحيث أن حفظه بعض الأدباء كاملا عن ظهر قلب؛ فحينما ظهر كتاب الزيات (دفاع عن البلاغة) يقدم وجهة نظر مختلفة عن وجهة نظر حبيبها وعشيقها؛ بدأت هي الهجوم عليه وعلى كتابه؛ تصفه بما هو بعيد عن الصواب؛ فقالت تنقد الزيات:

وليس يعيب الأستاذ أنه من صميم المدرسة القديمة وتلاميذها الخلص؛ فحسبه عندنا أنه من النفر القلائل الذين لهم مذهب بعينه، يعتنقونه ويخلصون في الدعوة اليه وكتاب (دفاع عن البلاغة) هو أحدث مطبوعات (الرسالة) التي تحمل جميعا طابع المدرسة القديمة: وهي مدرسة تكره حرية التعبير وبساطة الأداء وقرب المأخذ؛ وتشتد في طلب التركيب الضخم، والسبك الجيد، والصنعة المنمقة والتعبير الفخم؛ وتفتن بالألفاظ الموروثة عن البداوة. [2]

فرد الزيات ردا طريفا مثيرا يدل على الأسلوب الأدبي الخاص الذي لم يعد الآن مألوفا ولا معروفا في الحياة الأدبية المعاصرة؛ فقال فيما قال:

"على أنني بازاء سيدة تمردت على طبعها وحقيقتها؛ فلفت على رأسها الصغير عمامة الشيخ، ضمت أناملها الخرعة على قلم غليظ خشن يقطر بالدعوى العريضة والنية المريضة والجدل العقيم وعمدت الى المقالات الثلاث الأولى من (دفاع عن البلاغة) فمزقتها ومزقتها وسلت بعض الجمل من بين أخواتها سلا، وحاولت ان تجعل لكل جملة معنى مستقلا؛ لتستنتج منها ما حلا لها أن تستنتج. ومثل هذا لوصنع بأي كتاب مقدس لعاد باطلا كله...

ومن السهل يا زميلي على أي طفل أن يمزق أي كتاب بأي سكين ولكن التمزيق الصارم - كالتشريح بالمبضع المرهف – لايستطيعه الا الجهابذة الموهوبون... ليس من

طبعك ولا في وسعك يا سيدتي النقد النزيه؛ وليس من طبعي ولا في وسعي الرد السفيه؛ فردي هذا القلم الغليظ الى صاحبه، واستردي قلمك الرقيق من سالبه، وثقي بأن الفرق بين الكلام في الشواطئ والحقول وبين الكلام في ثمار القرائح والعقول كالفرق بين تكسير الجرة وبين تحطيم الذرة".[3]

أراك- أيها القاري الشاب- تشتاق الى رؤية وزيارة هذه المرأة التي أحبت زوجها هذا الحب؛ كأنك تريد ان تسألها عن ملامح من ستختارها... في حياتك؛ ولكن يؤسفني أن أقول: انك لا تستطيع، لأنها قد رحلت بنفسها الى حيث رحل زوجها الحبيب: الى مكان لا تستطيع هذا ولا ذاك الا بجسد ميت هامد لا حراك به ولكن يمكنك أن تعرف عنها؛ ألا وهي - بالاختصار الشديد- امرأة من مواليد ١٩١٣ سمتها أبوها (عائشة) فسمت نفسها بنفسها (بنت الشاطئ١) ولما تعرفت على حبيبها الانسان المطلوب ظلت توقع على كل ما تكتب باسم (بنت الشاطئ - من الأمناء) تاكيدا لنسبتها الفكرية إلى زوجها وأستاذها أمين الخولي، ولكن عندما توفي سنة ١٩٦٦ بكته في حزن ولوعة بكاء حتى تفجر ينبوعها الشعري.

فاذا كان الشعر اقوى الفنون الأدبية تعبيرا عن الحياة العاطفية فلذلك اخترت هذه القصة موضوعا لمقالي هذا تحت عنوان: "حب الزوج في شعر بنت الشاطئ". وشعرها نوعان: (1) منثور (2) وموزون؛ أنقل أولا من الشعرالمنثور قصائدها الثلاث، لسهولته في الفهم ووضوحه في المغزى، ولكي يكون مقدمة لفهم شعرها الموزون الذي عبرت فيه بنت الشاطئ عن نفسها ومشاعرها النسائية للحب في جو رومانسي حزين ، بوفاة زوجها الحبيب الى قلبها.

قبل أن ننظر صورتها هذه المشرقة في ضوء شعرها في هذا المجال؛ أرى من المناسب أن أنقل من كلامها ما يدل صراحة على مزاجها ومنهجها في التعبير عن نفسها وعلى أصالتها وشجاعتها في دراسة الأدب؛ مما جعلها أهلا لأن يعتبرها النقاد — بحق وجدارة — رائدة من رائدات الأدب النسوي الإسلامي الحديث والنقد الأدبي العربي المعاصر.

ففي ذلك تقول بنت الشاطئ في كتابها "رجعة فرعون": "من أهداف الأمناء (مدرسة أدبية تنتمي إليها بنت الشاطئ) أن يكون الفن نشاطا وجدانيا يسعد الفرد والجماعة".[4]

و تقول بنت الشاطئ في كتابها الآخر "الشاعرة العربية المعاصرة" متحمسة لأقدار المجتمع الاسلامي ومثله العليا: "لا يمكن أن نتمرد على ما في أنوثتنا — فطرة أو وراثة — من حياء وتجمل وترفع عن التبذل؛ ولا نزال نستجيب لما في خليقتنا من شعور بحدود لا يجوز في عرفنا أن نجاوزها في البوح والإفضاء؛ ولا نزال نميز بين حريتنا في التعبير عن عواطفنا وبين التحلل الذي يبيح الجهر

بأهواء الغرائز الجنسية".[5]

وذلك هو السبب الذي جعل أنور الجندي يقول: "هي سوية الرأى في قضية المرأة ومكانتها في الحياة".[6]

وفي كتابها الثالث "جديد في رسالة الغفران" تكشف بنت الشاطئ اللثام عن سببين هامين قد تسربا إلى أذهان الأوساط العلمية والأدبية كمرض مزمن وهما: مركب النقص ومفهوم خاطئ للمعاصرة وهما في الحقيقة مصدر الأخطاء في الإنتاجات الأدبية؛ إبداعية كانت أو نقدية؛ فكتبت تقول: "قلما نتمهل لنسأل عن عطاء ماضينا قبل أن نبادر؛ فنحكم عليه بالجدب، والإفلاس، والعقم فذلك لسببن: إما عن فتنة بالغربية ترهقنا بعقدة النقص وإما عن مفهوم زائف للمعاصرة لا يرى جدوى من الارتباط بالأسلاف والنظر في تراث عصور خلت".[7]

فمتى بدأت هذه القصة؟ وكيف تم اللقاء بينهما ولِم؟ ثم ما كانت نوعية وكيفية الارتباط بينهما؟ وأي أثر ترك هذا اللقاء فيها؟

ولمعرفة الأجوبة عن هذه الأسئلة – أيها القارئ الكريم – اسمع بنت الشاطئ نفسها وهي تقول في ذلك:

> ... كان أول درس استعمت إليه منه، منذ ذلك اللقاء ارتبطت به نفسيا وعقليا كأني قطعت العمر أبحث عنه في متاهة الدنيا وخضم المجهول... وقد انصرفت من درسه الأول في اليوم السادس من أكتوبر 1936 وأنا أحس كأني ولدت من جديد.

ثم لما أوحى إلى بنت الشاطئ هذا الحب العبقري ما أوحى: من مشاعر قلبية ومعاني جميلة، وأخيلة دقيقة وصور بديعة وتصوير رائع ووصف صادق مؤثر، رأت من واجب الفن والحياة عليها أن تقوم بإذاعتها ولكن لم تجد أي مبرر لنشر كتاباتها العاطفية بين الناس: لأنها لم تتزوج بعد؛ فوقعت في صراع داخلي عنيف؛ حتى اهتدت إلى حيلة أدبية رائعة أخرجتها من هذه المشقة الذهنية التي كانت تعانيها؛ وهي أن تقول أن صاحبة هذه الكتابات العاطفية هي صاحبة من صاحبات بنت الشاطئ؛ بذلت بنت الشاطئ جهدا جهيدا - بإسم حق الفن - في إقناعها بأن تنشرها؛ فنشرت قصائد نثرية دون الكشف عن إسم الكاتبة مع هذه المقدمة.

> لعل من واجبي أن أشير إلى المشقة التي عانيتها وأنا ألح على صاحبتي في نشر هذه المخطوطات، وإذاعتها. فقد أبت طويلاً أن تعرض على أعين الناس هذا السر العزيز الذي تراه سر الحياة،

وضنت بتلك الأنفاس العاليات – وهي عندها روح وجودها وجمال دنياها – أن تلقي هذه الكلمات على مسامعهم، وفيهم كافرون، وجاحدون، ومرتابون. على أني ما زلت بها أحدثها عن حق الفن، وأروي لها قصة ذلك الظلم الذي حاق بنا – نحن النساء – فغاب من تاريخ الفنون حديث عواطفنا ومشاعرنا، ثم مازلت بها أغريها – باسم حبها العبقري – أن ترتل على مسمع الدنيا نشيد إيمانها، ليستيقن الذين عرفوا، ويزداد الذين آمنوا إيماناً. حتى أذنت لي فينشر مخطوطاتها.[8]

ولكن النقاد رغما من ذلك اكتشفوا عن أن صاحبة بنت الشاطئ هذه؛ هي نفس بنت الشاطئ والشخصيتان في الحقيقة هما شخصية واحدة_

والآن أقدم إلى القراء نموذجا من قصائدها النثرية المنشورة في هذه المرحلة من عمرها، نشرته تحت عنوان (نشيد):

شاقني أن أرفع إليك نجواى، وقد فصلتني عنك قطعة من الزمان، هي في حساب الدنيا بضعة أيام، وهي في حسابي دهور وأعمار... ويا ويلي من قصور اللغة.

أقول: فصلني عنك الزمان! ووالله ما تفصلني عنك قوة في الأرض أو في السماء. وما تغيب عني لحظة في يقظة أو منام. وإن كنت مع ذلك أفتقدك في كل زمان ومكان وأنت أنت – على النأي والقرب – ملء عيني، ملء دنياي.

يرهقني الشوق إليك وأنت معي.

ويفنيني الحنين لك وأنت إلى جانبي، وتعذبني اللهفة عليك وأنت بين يدي ويعز على الصبر عنك وأنت مني وإليّ.

وهيهات أن يسع الكون بعض هذا أو يسعف عليه العمر أو يحتمله كيان من لحم، ودم، وأعصاب غدوت كلما لقيتك، عصفت بي،

وزلزلت كياني، ومزقت أعصابي.

من عنف ما تبعثه فيَّ، وأجده فيك، وأعرفه منك.

فإذا غلبني الصبر ونفد الاحتمال خفت على نفسي التمزق والموت، وروعني أن أرحل عن الدنيا وأنت فيها فأوشك أن أسألك أن تعلمني بعض الصبر عنك، وتروضني على شيء من الاحتمال لك رفقا بي، وإبقاء عليّ...

لكن نفسي لا تلبث أن تتمرد على هذا الضعف وتراني كفؤًا لذلك الحب وتراك أهلا لي وله فأمضي ساعية إليك:

إلى وقدة النار، وبهرة النور
إلى عصف الهوى، وغشية النشوة
إلى قسوة الألم وروعة اللقاء
إلى عنف التبدد، وهول الفناء
وفي عيني بريق العزم والإيمان
وعلى شفتي ابتسامة الرضى والفرح
وعلى وجهي إشراق الاستشهاد
وألقاك يوماً بعد يوم
فكأني ما لقيتك قبل ذلك اليوم
فأندفع إليك في لهفة وشوق
كأنما عثرت عليك بعد أن أمضيت العمر كله
أفتش عنك
فإذا آن لنا أن نفترق
عصف بي الألم – وروعني التمزق
وتوهمت – من هول ما أكابد – أني لن ألقاك بعد اليوم فأتشبث بك، وأملأ عيني منك كأنما أتزود قبل الرحيل
وهكذا يتحمل، كل لقاء لنا، أفراح اللقاء الأول

وأحزن اللقاء الأخير".[9]

وفيما بعد تزوجت بنت الشاطئ من كانت تحبه وتعتبره المثل الأعلى في الفكر والحياة وهو – في تعبير ابراهيم البعثي – أمين الخولي "الأديب العملاق، والأستاذ النادر الذي نجح في أن يجعل لكل ذرة من رصيدها القديم من الثقافة والعلم قيمة كبرى؛ ثم نجح في مزجها بالجديد، فأصبح ما في عقلها وقلبها ثروة تقدم أحسن ما فيها للقراء كلما صدر لها كتاب جديد".[10]

ومن أجل ذلك كانت قد أحبته وتعلقت به ثم ظلت تحمل له في قلبها هذه العاطفة القوية طول حياته؛ ليس هذا فحسب بل كانت تفتخر وتعتز به إزاء كبار الأدباء: مثل الزيات الذي خاضت معه بنت الشاطئ معركة أدبية عنيفة؛ كما مر ذكرهاسابقا

ولوصف حالهما في الحياة الزوجية وبيان أن بنت الشاطئ كيف عبرت عن نفسها ومشاعرها في هذه المرحلة يطيب لي ان أختار هذه القصيدة من قصائدها النثرية:

آن لي بعد تلك الرحلة الشاقة أن أعرف جواب ما طالما سالت عنه:

أين ومتى يا ترى لقيته، وسمعت صوته من قبل؟

فمنذ قابلته، تجلى لي السر المحجب الذي حيرني أمداً طويلاً، وكانت مجاهدتي

الصعبة سعيًا دائبًا لكي أصل غلى مرتبة الكشف التي يفني (أهل الحقيقة)

أعمارهم في سبيل الوصول إليها..

فلقد آمنت من اللحظة الأولى للقائنا أنه اللقاء الذي تقرر في ضمير الغيب،

منذ خلقنا الله من نفس واحدة، وخلق منها زوجها:

و إن عدتنا الدنيا اثنين في الحساب الرقمي والواقع العددي.

اثنين، لكل منهما اسمه ونسبه ولقبه وصفته وصورته، وعمله وشخصيته.

وبهذه الثنائية العددية يتعاملان مع الناس ولكنهما في جوهر حقيقتهما واحد لا يتعدد..

لا كما تغنى الشعراء بالروح الواحدة في جسدين.

ولا كما تمثل الصوفية رؤيا الفناء في ذات الحبيب.

ولا كما تأمل الفلاسفة في وحدة الوجود.

ولا كما تحدث العلماء عن الخلية الواحدة قبل أن تنقسم

وإنما هو سر وراء ذلك كله.

تجلت فيه آية الله الذي خلقنا من نفس واحدة وخلق منها زوجها.

***

وكنا أحياناً نفترق
يذهب كل منا إلى عمله، أو يسافر في بعض شأنه.
وقد يمضي أحدنا إلى أقصى المشرق، والآخر إلى أقصى المغرب.
لأن الدنيا لا تعرف إلا أننا اثنان.
و الحياة تفرض علينا أن نعانيها بهذه الثنائية العددية.
ورغم هذا كنا (النفس الواحدة).
وذلك ما أعيا الدنيا ويعييها أن تفهمه أو تتصوره وتتمثله.
إلا أن تحسبه من رؤى الشعراء الحالمين أو مواجد الصوفية العاشقين ويستعصي على منطقها أن تفسره.
إلا أن يقول فيه هذا المنطق: إنه من تآلف القلوب واندماج النفوس وتعانق الأرواح..
وراء عالم الواقع ومقاييس المادة ومنطق الحس وأبعاد المنظور.
و كنا أحيانًا نتخاصم!
و ربما مرت علينا فترات غضب يحسبها أهلونا وأصدقاؤنا من لهفة الحب ودلال العاشقين...
ويلمح فيها أرهقهم حسًّا وهج النار المشتعلة في أعماقنا يتلمس متنفسًا!
دون أن يتصور أحدهم أن المخاصمة أو المغاضبة ليست إلا صراعاً حتميًّا بين جوهرنا الواحد،
وبين الثنائية المزدوجة التي يفرضها علينا واقع الحياة وقانون المادة وأوضاع الدنيا!
ومضى العمر كله وما كففت عن التساؤل.
-أكان يمكن أن أضل طريقي إليه، فأعبر رحلة الحياة دون أن ألقاه؟
و حتى آخر العمر، لم يتخل عني إيماني بأني ما سرت على دربي خطوة إلا لكي ألقاه..
و ما كان يمكن أن أحيد عن الطريق إليه، وقد عرفته في عالم المثل ومجالي الرؤى وفلك الأرواح...
من قبل أن أبدأ رحلة الحياة)). [11]

ثم شاء الله أن يجرب مشاعر بنت الشاطئ كزوجة فقدت حبيبها وزوجها الذي اعتبرت حياتها معه وبعده امتدادالحياته. تعال أيها - القارئ الكريم- لنصغولنستمع إلى صوت ضميرها الجريح وعقلها المتيقظ في قصيدة نثرية أخرى تقول بنت الشاطئ فيها:

... وبدت الحياة لتلاميذه أقل جمالاً ونضرة من بعده، وأندر شجاعة وحكمة...
فكيف عساها تبدو لي
وقد كان هو نبضها الحي وسرها الأكبر
و كان هو الذي يعطيها قيمة ومعنى؟

و على درب وجودنا الواحد وحياتنا المشتركة..

سارت خطاه تشع الدفء والنور، وتفجر ينابيع الحب والخير والجمال.

و ما تصورت قط أن أعيش بعده

بل كان اليقين أن نتابع رحلتنا معًا إلى الدار الآخرة.

و أن ليس على الله بمستبعد أن تتجلى فينا وبنا آيته الكبرى، فنمضي معا

كما جلت فينا ولنا في حياتنا الأولى

فكنا الواحد الذي لا يتعدد

و الفرد الذي لا يتجزأ

كيف مضى وبقيت؟

أهو ابتلاء لإيماني ببشرية الإنسان، إذ أشهد الموت يغتال من كان يعطي الحياة حياة،

و يفيض عليها جمالاً من شجاعته وحكمته، وذكاءه وفروسيته؟

اللهم إني ما جحدت قط بشريته، وكل بشر يموت لكني ما توقعت أن أعيش بعده.

فهل هوالموت، لا يرى فينا إلاإثنين، لكل منهما أجله المقدر بالثواني، وعمره المحسوب بالأنفاس؟

تلك إذا تجربة أخرى نكابدها (أي نجربها) فيكون منا الحي الميت، والميت الحي، إلى أن ألحق به

فيلتئم كياننا طيفاً واحداً في عالم الأرواح.

أم لعلها الحياة أمهلتني ريثما أروي قصتنا على مسمع الزمان، تفسيراً لآية الله العظمى فينا، خلقنا (من نفس واحدة وخلق منها زوجها) ؟

أم لعله القدر أراد لي أن تكتمل معاناتي لتجربة الحياة، فأبلو حزنها الأكبر كما بلوت نعمتها العظمى وفرحتها الكبرى؟

ما زلت حائرة لا أدري...

و على الجسر، ما بين الحياة والموت

في متاهة الحيرة والضياع

لا أكف عن رصد حركاتي، وإحصاء أنفاسي، مستغرقة في تأمل هذا المشهد الغريب من قصتنا.

مرددة مع كل نفس (من أنفاسي)

كيف مضى... وبقيت!

أسفاً!!!

كل الذي كان من حياتنا معاً انتقل إلى منطقة الأحلام والذكريات

و الذي بقي، في نطاق الواقع هو هذا المشهد الفاجع بكل عمقه وأبعاده المترامية[12]

هكذا عبرت بنت الشاطئ عن عواطفها القوية ومشاعرها الرقيقة في الشعر المنثور؛ تعبيراً يدل على صلة ودية قوية لها مع زوجها؛ كما تعبر قصائد بنت الشاطئ الموزونة عن نفس العلاقة الوطيدة والصلة المتنية للتحابب والتوادد الزائدين بين الزوجين؛ تعبيرا قويا رائعا تتجلى فيه بجانب ذلك مهارتها في اللغة العربية وامتلاكها على ناصية البيان.

قد عثر تاريخ الأدب العربي المعاصر – حتى الآن – على ثلاث قصائد لها في هذا المجال (حب الزوج) نشرتها بنت الشاطئ بعد رحيل حبيبها في أوقات مختلفة تحت العناوين: (1) "الرؤيا" وتاريخ كتابتها ستمبر نفس السنة التي توفي عنها زوجها 1966م و(2) "بعد عام" وتاريخ كتابتها مارس 1967 و(3) "كلمات للذكرى في يوم حزين" وتاريخ نشرها مارس 1971م.

أما قصيدتها "الرؤيا" فهي أول قصيدة موزونة كتبتها بنت الشاطئ بعد رحيل حبيبها: تعبر الشاعرة فيها عن حالها بفقد حبيبها: من ضعف قواها ونحالة جسمها ويأسها وقنوطها من اللقاء معه وعن تصورها أن الحياة قد أصبحت لها كهفا مظلما ليست له نوافذ وليس فيه ضوء وبينما هي في ذلك ؛ إذ أحست بوقع مألوف ومأنوس من أقدام؛ فاذا القوة والنشاط يعودان إلى جسمها الممزق؛ فتسرع إلى الباب؛ فاذا الأفق يسطع نورا من حبيبها الراحل والجو يملأ بشذاه؛ فتستقبله، فتمد يدها إليه ويمدّ يده إليها فاذا الأحزان والشجون تذهب هباء منثورا، وأصبح هذا الكهف المظلم من حياتها كأنه مسجد فيه سكينة وطمانينة. ثم جلسا يتحادثان؛ فتشكو إليه الشاعرة وهو يخفف من حزنها وشجنها؛ ويدعوها كعادته إلى مزيد الاحتمال والصبر والمثابرة فيما بقى لها من رحلة الحياة.

وفي نهاية القصيدة تصحو الشاعرة من غفوتها فنجد أن الحلم قد فر وحياتها – كما كانت تتصور – كهف مظلم ليس فيه ضوء ولا نافذة يأتي منها هواء طلق:

طيف من أحببته طاف بنا
فتنبهنا على وقع خطاه
خلته قد آب من رحلته
مرهف الشوق وقد طال سراه
بعد يأس من رجاء الملتقى
بلغ البين أقسى مداه
لم نكن نمنا ولكن غفوة
من كلال نال منامنتهاه

***

فجأة نبهنا من غفونا

رجع إيقاع أليف من خطاه

و تهادت نحونا أنفاسه

تحمل البشرى لنا عطر شذاه

ردت الروح إلى أشلائنا

و سرت في قلبنا نبض حياه

فاستبقنا الباب لاستقباله

و على الأفق شعاع من سناه

لمسة ساحرة من كفه

عاد منها الكهف محراب صلاه

قلت: أشكو من تباريح النوي؟

قال: ليس ذاك وقت الشكاه

حسبنا أنا التقينا فاغفري

لزمان البين ما اغتالت يداه

قلت: أخشى ما طوى من غدره

قال: خلى هم أمس وغد

أمس قد ولى و لم تأت الغداه

قلت: ما أدري أحلم ما أرى

أم بعثنا....

و انتهى الصوت وتاه

***

وصحونا فاذا تلك رؤي

بعثرتها الريح في تيه الفلاه

و إذا نحن كما كنا هنا

في قرار الكهف لمتفتح كواه

نلعن المرو نقتات الجوى

عافنا الموت وعافتنا الحياة". [13]

قال رجاء النقاش: فالقصيدة بصورة عامة تبدو قصيدة رومانسية ناعمة، فيها ظلال من قصائد إبراهيم ناجي الرقيقة وفيها صدى من أنغامه العذبة.

و أما قصيدة "بعد عام" فهي قصيدة ثانية تعبر عما تعاني الشاعرة من إحساس عميق بالفراغ الكبير بعد رحيل زوجها الذي كان يملأ حياتها بالحب والحنان وتصف شوقها ولهفتها إلى لقاء حبيبها الذي تتصور بنت الشاطئي: أن صورته لا تغيب عنها ولو لحظة حتى في الظلام الداجي وأن حياتها له وبه فإن تحيا فبأنفاسه تحيا وإن تبكى فلأن بعضها حي وبعضها الآخر ميت ولذلك يؤسفها أن اللقاء بين الحبيبين لم يتم حتى الآن، وبعدما حاولت بكل ما وسعها.

ومضى عام وما زلت هنا
أنقل الخطو على الجسر إليك
مرت الأيام تغذوني الجوى
كيف لم أهلك أسى، حزنا عليك
كلما دنا ميعادنا
خانني الظن و لم أرحل إليك
مزقت أيدي المنايا شملنا
و أراني دائما بين يديك!

***

لم تغب رؤياك عني في الدجى
و حديثي كله عنك.. ولك
و أناجيك فيرتد الصدى
من بعيد سائلا عني وعنك
كيف أبقى بعد إيغال النوي
و حياتي سرها فيك وبك؟
هل مضى العام ومازلت هنا
أنقل الخطو على الجسر إليك
أبأنفاسك أحيا أم ترى
مات بعضي وبكى بعضي عليك.

قال رجاء النقاش :هذه القصدية مثل القصيدة الأولى تدور في أجواء واضحة من العاطفة الصادقة ومن الحزن واللهفة والإحساس العميق بفراغ الحياة بعد رحيل الحبيب.[14]

وأما قصيدتها الثالثة فهي "كلمات للذكري في يوم حزين: "التي هي آخر قصيدة عثر عليها مؤرخو الأدب العربي المعاصر؛ نشرتها بنت الشاطئ الزوجة الشاعرة بمناسبة الذكرى الخامسة لرحيل زوجها الأستاذ في الأهرام عام 1971م.

و القصيدة كلها تترجم عن وقع هذه المأساة الأليمة على حسها المرهف:ففي ذلك يقول رجاء النقاش:

عبرت فيها بنت الشاطئ عن إحساسها الحزين بالضياع والاغتراب بعد فقد الزوج الذي كان في نفس الوقت حبيباو والدا واستاذا ورائدالها في طريق الحياة وطريق العلم.

إشرب الكأس ولا تبق ثمالة
ما علينا
يستوي حلو ومر
و افترض أنا رفضنا شربها
هل يبالي رفضنا
دهريمر؟
هون المر علينا أننا
قد جرعناه طويلا
قطرة في إثر قطرة
و مضى الدهر علينا
لاهيا لم يلق نظرة
فلنسغ من كأسنا
هذه الثمالة
كل دنياك ضياع واغتراب
و اكتئاب وملاله
ما علينا،
يستوي رفض وصبر
افترض أنا هربنا من جنون وخيال

هل لدى العقل الجواب
عن سؤال وسؤال؟
هل دري أين المفر؟
أو رأى في اليوم مرسى
غير وهم وضلالة؟
فسر في التيه فلم تبق ذبالة
يستوي ليل وفجر
و اجرع الكأس ولا تبق ثمالة
يستوي حلو ومر [15]

لم نجد في هذه القصائد لبنت الشاطئ مظاهر مختلفة لحب نسوي للزوج وحسب؛ بل يبدو أن هذا الحب العبقري – حسب تعبير بنت الشاطي نفسها – هو الذي فجر ينبوع موهبتها الشعرية فيمكننا إذاً أن نعتبر أن حب الزوج هو من أقوى المصادر؛ بل هوالمصدر الوحيد لشاعرية بنت الشاطئ الشاعرة.

الهوامش والمصادر

---

[1] الشاطئ, بنت. مقال في الانسان دراسة قرآنية. ط: 1970م, دار المعارف, بيروت

[2] النقاش, رجاء. ثلاث نساء من مصر. نهضة مصر؛ ط: ١٩٠٩م، ص١٣٦

[3] نفس المصدر، ١٣٨

[4] راجع لحياتها: البعثي, إبراهيم. شخصيات اسلامية معاصرة. ط: 1970م, دار الشعب, ص٨٠ الى ١٠١

[5] الشاطئ, بنت. الشاعرة العربية المعاصرة. ط: 1965م, دار المعارف, ص60

[6] الجندي, أنور. أضواء على الأدب العربي المعاصر. ط: 1969م, دار الكتاب العربي, بيروت, ص189

[7] الشاطئ, بنت. جديد في رسالة الغفران. ط: 1972م, دار الكتاب العربي, بيروت, ص11

[8] ثلاث نساء من مصر، ص90

[9] ثلاث نساء من مصر، ص91-92

[10] شخصيات إسلامية معاصرة، ص101

[11] ثلاث نساء من مصر، ص109

[12] ثلاث نساء من مصر، ص111-112

[13] ثلاث نساء من مصر، ص105

[14] ثلاث نساء، ص107

[15] ثلاث نساء من مصر، ص81-82